أبو بكر القاضي

# دورة أم الكتاب

## تدبر سورة الفاتحة

### تفسير سورة الفاتحة

من كتاب تدبرات ابن القيم - للسبهان

## المحاضرة الرابعة

المشروع العلمي المتكامل لطالب العلم

لـ. أبو بكر القاضي

السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ.

بسمِ اللهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.

ثم أما بعدُ...

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

ثم أما بعدُ...

فإن اللهَ ﷻ من أسمائِهِ الحسنى «**الهادي**»؛ هو ﷻ كما قال: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الحج: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾ [الفرقان: ٣١].

فاللهُ ﷻ هو هادي أهلِ السماواتِ والأرضِ، هو الدليلُ لهم، هو المرشدُ لهم، هو ﷻ الذي يهديهم الهدايةَ العامةَ إلى كيفيةِ حياتِهم، وإلى كيفيةِ إدارةِ معاشِهم.

يهدي هذا العصفورَ إلى التنقيرِ في الأرضِ حتى يصِلَ إلى الغذاءِ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] -كما قالَ الهدهدُ-؛ فإن الحَبَّ يكونُ مخبَّأً في الأرضِ حتى ينقُرَ لهُ الطائرُ حتى يصِلَ إليهِ؛ هذا من هدايةِ اللهِ لهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣].

يهدي هذا الرضيعَ لكي يلتقمَ ثديَ أمهِ؛ فهو يهديهِ لذلكَ ليكونَ بذلكَ قِوامُ عيشِهِ وقِوامُ حياتِهِ.

هذهِ هي الهدايةُ العامةُ لجميعِ المخلوقاتِ التي خلقَها اللهُ ﷻ؛ لجميعِ الطيورِ، والكائناتِ، والدوابِّ، ومنهم البشرُ.

وهذهِ هدايةٌ يشتركُ فيها البَرُّ والفاجرُ، والمؤمنُ والكافرُ، ولا يُفَرَّقُ بينهم فيها.

وهنالكَ هدايةٌ خاصةٌ بعبادِهِ المؤمنينَ: هدايةٌ للوصولِ إليهِ، هدايةٌ لمعرفتِهِ، وتجلِّي حقائقِ أسمائِهِ وصفاتِهِ على قلوبِهم، وتجلِّي معاني حبِّهِ على قلوبِهم؛ هذهِ هدايةٌ خاصةٌ بعبادِهِ المؤمنينَ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وهو ﷻ «النورُ»: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؛ فهو منوّرُ السماواتِ والأرضِ ذاكَ النورَ الحِسّيَّ بالشموسِ، والأقمارِ، والنجومِ، وكذلكَ من معاني «النورِ» أنهُ هادي أهلِ السماواتِ والأرضِ، ومنوّرٌ قلوبَهم بالنورِ المعنويِّ؛ بمعرفتِهِ ﷻ، بنورِ الفطرةِ.

ونورِ الوحيِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن

شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: اللهُ هادي أهلِ السماواتِ والأرضِ، ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في قلبِ المسلمِ -كما قالَ ابنُ عباسٍ وأُبَيُّ بنُ كعبٍ رضي اللهُ عنهم-: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

هذا المَثَلُ المضروبُ في سورةِ النورِ مضروبٌ لنورِ الهدايةِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ، وفي قلبِ كلِّ مؤمنٍ: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ المشكاةُ هي التجويفُ في الحائطِ، وهي إشارةٌ إلى التجويفِ الصدريِّ، هذهِ هي المشكاةُ: هي التجويفُ، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ المصباحُ هو مصدرُ النورِ، والعلمِ، والمعرفةِ، والإيمانِ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾: الزجاجةُ هي مَثَلُ القلبِ؛ شبَّهَ القلبَ بالزجاجِ لأن فيهِ ثلاثَ صفاتٍ: الصلابةَ، والنقاءَ، والرِّقَّةَ.

فالمؤمنُ قويٌّ في عقيدتِهِ، صُلْبٌ فيها، شديدٌ فيها، رقيقٌ لكلِّ ذي قُرْبَى ومسلمٍ، ويرى الحقَّ بشفافيتِهِ، ونقائِهِ، وفراستِهِ، وبصيرتِهِ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

فإن المؤمنَ صاحبَ القلبِ الزجاجيِّ، إذا كانتِ الزجاجةُ نقيةً، وإذا كانَ المصباحُ وهَّاجًا، فإنهُ يهتدي في نفسِهِ، ثم يكونُ هاديًا لغيرِهِ، وجعلناهم هداةً مهتدينَ.

فكالكوكبِ الدُّرِّيِّ الذي إذا سارَ الناسُ في الصحاري، والفيافي، والظلماتِ، والمُدْلَهِمَّاتِ يهتدونَ بهِ؛ يكونُ هاديًا، يكونُ إمامًا للمتقينَ، يكونُ صالحًا، يكونُ مصلحًا، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

هذا القلبُ الزجاجيُّ المستنيرُ إنما هو يُوقَدُ من زيتٍ مباركٍ، من شجرةٍ مباركةٍ.

وهذا يدلُّكَ على أنهُ ليس شمعةً يُسْتَهْلَكُ، وليس جسرًا يمرُّ الناسُ عليهِ إلى الجنةِ ثم يسقطُ في جهنمَ، بل هو مصباحٌ لا بد لهُ من تغذيةٍ، لا بد لهُ من وقودٍ. وهكذا المؤمنُ لا بد أن يزيدَ إيمانَهُ بعبادتِهِ، وأورادِهِ، وطلبِهِ للعلمِ، ودعوتِهِ إلى اللهِ، وتلبُّسِهِ بالطاعاتِ؛ فالإيمانُ يزيدُ وينقصُ: يزيدُ بالطاعاتِ، وينقصُ بالمعاصي.

لا بد من وقودٍ لكي تزدادَ هذهِ الهدايةُ؛ فالهدايةُ تزدادُ: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٧]. هذهِ الهدايةُ تزدادُ بالطاعاتِ، بالقُرُبَاتِ، بالعلمِ النافعِ، بعملِ الصالحاتِ، بالدعوةِ إلى اللهِ، بتبليغِ رسالاتِ اللهِ، بدعاءِ اللهِ ذلكَ.

كانَ النبيُّ ﷺ يسألُ ذلكَ: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»، «**اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنَا فِيمَنْ عَافَيْتَ...**» إلى آخرِ هذا الدعاءِ، «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**».

وأيضًا النبيُّ ﷺ كانَ يقولُ: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ».

وكانَ موسى يقولُ: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. هكذا الأنبياءُ يسألونَ ربَّهم عز وجل الهدايةَ، والهدايةُ هنا هي الهدايةُ الخاصةُ: الهدايةُ المعرِّفَةُ بهِ، المرشدةُ إليهِ، الموصلةُ قلوبَهم إليهِ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ أيْ شجرةِ الوحيِ، هي غذاءُ هذا القلبِ، ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ شجرةُ الوحيِ وسطٌ بينَ الغُلُوِّ والجفاءِ، بينَ الإفراطِ والتفريطِ، بينَ المغضوبِ عليهم والضالينَ؛ فالإسلامُ وسطٌ بينَ المِلَلِ، وأهلُ السنةِ والجماعةِ وسطٌ بينَ الفِرَقِ: «وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».

«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ».

هذا هو الصراطُ الهادي إلى اللهِ عز وجل، هذا هو الصراطُ الذي يوصِلُ إلى اللهِ ﷻ: الإسلامُ والسنةُ؛ الإسلامُ واستقامةٌ، الإسلامُ في التوحيدِ -الإسلامُ العامُّ-، والإسلامُ الخاصُّ بدينِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ، واتباعُ النبيِّ ﷺ، وتطبيقُ الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم لهذا الدينِ.

لا سيما الخلفاءَ الراشدينَ المهديينَ من بعدِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فيكونُ هكذا نوعانِ من الهدايةِ: هدايةٌ عامةٌ، وهدايةٌ خاصةٌ. وعندنا نوعانِ آخرانِ من الهدايةِ: هدايةُ البيانِ، وهدايةُ التوفيقِ. هدايةُ البيانِ: هي البيانُ عن الحقِّ.

وهذهِ التي يجريها اللهُ ﷻ على لسانِ الرسلِ، وعلى لسانِ الأنبياءِ، وعلى لسانِ الدعاةِ والمصلحينَ، وأثبتَها اللهُ عز وجل لنبيِّهِ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وهنالكَ هدايةٌ هي هدايةُ التوفيقِ: خَلْقُ الهدايةِ في قلبِ العبدِ، وهذهِ لا يستطيعُها ولا يقدرُ عليها إلا اللهُ؛ ولذلكَ نفاها اللهُ ﷻ عن نبيِّهِ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

نزلتْ في عمِّهِ أبي طالبٍ حينَ وقفَ النبيُّ ﷺ على رأسِهِ، وظلَّ يقولُ: «**يَا عَمِّ، قُلْ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فكانَ حولَهُ أبو جهلٍ وغيرُهُ، وكانوا يقولونَ لهُ: «**أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلبِ؟**»، فما زالوا بهِ حتى قالَ: «**هو على مِلَّةِ عبدِ المطلبِ**» -أيْ يعني نفسَهُ: هو على مِلَّةِ عبدِ المطلبِ-، وماتَ على ذلكَ.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فنزلَ قولهُ تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص: ٥٦]؛ أي: اللهُ ﷻ أعلمُ بالمحلِّ اللائقِ بهدايتِهِ ﷻ؛ أنتَ تحبُّهُ، ولكنهُ ليس محلًّا لائقًا لهدايةِ اللهِ ﷻ، اللهُ أعلمُ بمن يهدي، اللهُ أعلمُ بمن يهدي ويستحقُّ ذلكَ؛ فإن الهدايةَ نعمةٌ عظيمةٌ من اللهِ ﷻ.

اللهُ أعلمُ بمن يُتِمُّ عليهِ هذهِ النعمةَ حتى يتوفَّاهُ على الإيمانِ، والإسلامِ، والإحسانِ، حتى يختمَ لهُ الخاتمةَ الحسنةَ؛ فاللهُ عز وجل أعلمُ بذلكَ،

اللهُ ﷻ هو العليمُ الحكيمُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابنُ القيّمِ: «**أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ أصلًا في الرسلِ والأنبياءِ، وميراثًا في العلماءِ والدعاةِ والمصلحينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ووراثةً على قدرِكَ في هذهِ الهدايةِ**»؛ فإن كلًّا منا قد قرأَ آيةً، قد قرأَ حديثًا، قد ورِثَ من ميراثِ النبُوَّةِ.

ولكنَّ العلماءَ هم أكثرُ مَن أخذَ من هذا الميراثِ وأخذوا منهُ بنصيبٍ وافرٍ، بخلافِ مَن حظُّهُ من العلمِ قليلٌ. اللهُ ﷻ أعلمُ بالقلوبِ اللائقةِ والصالحةِ لهذهِ الهدايةِ.

المؤمنُ دائمًا في تشوُّقٍ إلى هدايةِ اللهِ، دائمًا ينقِّي نفسَهُ، يخلِّي نفسَهُ من الأمراضِ، والعوائقِ، والعقباتِ، والعلائقِ، وأنواعِ المعاصي؛ يزكِّي نفسَهُ بتخليتِها من ذلكَ؛ لكي يتأهَّلَ لهدايةِ اللهِ عز وجل، لكي

يتزكَّى وينموَ، وينموَ الإيمانُ في قلبِهِ؛ فيزدادَ هُدًى، ويزدادَ علمًا باللهِ ﷻ، ويزدادَ قُرْبًا من اللهِ ﷻ، المؤمنُ يؤهِّلُ نفسَهُ لذلكَ.

قال ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**». كلما كانَ القلبُ رقيقًا، كلما كانَ القلبُ ليِّنًا، كلما كانَ أكثرَ استجابةً لكلامِ اللهِ ورسولِهِ، ومن ثَمَّ أعظمَ حياةً.

وأعظمَ اتصالًا باللهِ ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: «**يحولُ بينَ المؤمنِ والكفرِ، ويحولُ بينَ الكافرِ والإيمانِ**».

اللهُ ﷻ هو الذي يملكُ هذهِ القلوبَ؛ قال ﷺ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»؛ القلبُ الذي يشاءُ أن يقيمَهُ أقامَهُ، والقلبُ الذي يشاءُ أن يزيغَهُ أزاغَهُ.

ولذلكَ القلبُ يتقلبُ أشدَّ تقلبًا من القِدْرِ حينَ تستجمعُ غليانًا، وأشدَّ تقلبًا من الورقةِ في مَهَبِّ الريحِ.

ولذلكَ المؤمنُ دائمًا يسألُ اللهَ الهدايةَ، يسألُ اللهَ الثباتَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، «**يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

«**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**». يعلِّقُ قلبَهُ بذلكَ، لا يعلِّقُ قلبَهُ بشيخٍ، ولا يعلِّقُ قلبَهُ بسببٍ، ولا يعلِّقُ قلبَهُ بكلِّ ذلكَ وكلِّ هذهِ الأسبابِ المخلوقةِ، بل ينظرُ إلى المسبِّبِ الذي خلقَها، فهو يهديهِ الهدايةَ العامةَ والهدايةَ الخاصةَ.

ولذلكَ جاءَ قولهُ تعالى في الآيةِ السادسةِ من سورةِ الفاتحةِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال ابنُ القيّمِ: «**ثم يشهدُ من ﴿اهْدِنَا﴾ عشرَ مراتبَ؛ عشرَ مراتبَ للهدايةِ إذا اجتمعتْ حصلتْ لهُ الهدايةُ:**

**المرتبةُ الأولى: هدايةُ العلمِ والبيانِ**»؛ وهذا -كما ذكرنا- وظيفةُ الأنبياءِ، والرسلِ، والمبلِّغينَ عن اللهِ رسالاتِهِ؛ «**فيجعلُهُ عالمًا بالحقِّ مدركًا لهُ**».

وهذهِ الهدايةُ الأولى -وهي هدايةُ العلمِ- عليها مَنَاطُ التكليفِ؛ فلا يُكَلَّفُ حتى يعلمَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وهي المَنَاطُ الذي عليهِ الثوابُ والعقابُ، وإلا فإن الجاهلَ يُعْذَرُ بجهلِهِ ما لم يبلغْهُ الخطابُ.

فالمرتبةُ الأولى: هدايةُ العلمِ والبيانِ؛ فيجعلُهُ عالمًا بالحقِّ مدركًا لهُ.

«**الثانيةُ: أن يُقْدِرَهُ عليهِ، وإلا فهو غيرُ قادرٍ بنفسِهِ**»؛ الهدايةُ التي يملكُها اللهُ ﷻ هو أنهُ يهبُكَ القدرةَ على الحقِّ ذلكَ، وعلى اعتقادِهِ والعملِ بهِ؛ فإن اللهَ ﷻ خالقُ قدرةِ العبدِ، وخالقُ مشيئتِهِ.

وهذهِ هي «**الثالثةُ: أن يجعلَهُ مريدًا لهُ**»؛ أن يزيلَ عنكَ الباطلَ، أن يزيلَ عنكَ العقباتِ والعوائقَ؛ ولذلكَ قالَ إبراهيمُ: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقالَ سليمانُ: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ**﴾ [النمل: ١٩].

وقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: «**رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»، «**رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ شَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا**». مَنِ الذي يهدي إرادتَكَ ويهدي قدرتَكَ إلى الحقِّ؟ اللهُ ﷻ.

«**الرابعةُ**» -بعدَ القدرةِ والإرادةِ-: «**أن يجعلَهُ فاعلًا لهُ**»؛ يجعلُهُ -كما ذكرنا- مقيمَ الصلاةِ، يجعلُهُ ذكَّارًا، شكَّارًا، رهَّابًا، مطواعًا، مخبتًا إلى اللهِ، أوَّاهًا منيبًا؛ اللهُ يجعلُهُ، يجعلُكَ كذلكَ.

فاللهُ خالقُ العبدِ وفعلِهِ؛ قالَ تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات: ٩٦]، وقالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ**».

«**الخامسةُ**» -بعدَ أن يفعلَ، لن يفعلَهُ مرةً فحسب-: «**أن يثبّتَهُ على ذلكَ، ويستمرَّ بهِ عليهِ**».

وهذهِ هي الإشكاليةُ التي نعاني منها في رمضانَ وبعدَ رمضانَ، نعاني منها في طريقِ التزامِنا: الفتورُ، الكسلُ، الانقطاعُ، عدمُ إدامةِ العملِ. كانَ النبيُّ ﷺ إذا عملَ عملًا أثبتَهُ، وكانَ عملُهُ دِيمَةً ﷺ، وكانَ يقولُ: «**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**».

هذا الثباتُ لا يأتي إلا من عندِ اللهِ عز وجل، هذهِ الدِّيمَةُ لا تأتي إلا من عندِ اللهِ، وتوفيقِ اللهِ، وإلهامِ اللهِ، وتأييدِ اللهِ ﷻ، ولذلكَ هذا الذي هو أهمُّ مَحَكٍّ نُبْتَلَى بهِ بعدَ رمضانَ.

نُبْتَلَى بهِ بعدَ هذهِ الطاعاتِ من القيامِ، والصيامِ، وقراءةِ القرآنِ، وذكرِ اللهِ، والدعاءِ، والتضرعِ، وصلةِ الأرحامِ، وبِرِّ الوالدينِ، والصدقاتِ، وإطعامِ الطعامِ، وإفشاءِ السلامِ، والصلاةِ بالليلِ والناسُ نيامٌ: الانقطاعُ عن ذلكَ.

مَن يثبِّتُنا؟ أولُ شيءٍ: أن تعلمَ أن اللهَ هو الذي يثبِّتُكَ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ما الذي يثبّتُ فؤادَ النبيِّ ﷺ؟ والنبيُّ ﷺ يحتاجُ إلى تثبيتِ ربِّهِ ﷻ، فكيفَ بي أنا وأنتَ في هذهِ الفتنِ، في هذهِ الشهواتِ، في هذهِ الشبهاتِ، في هذهِ الغربةِ، في هذا التضييقِ، في هذا الاستضعافِ.

في كلِّ يومٍ حملةٌ مشوّهةٌ للكتابِ، والسنةِ، والصحابةِ، والتابعينَ، وأئمةِ التراثِ، على يدِ الرُّوَيْبِضَاتِ -المرءُ التافهُ يتكلمُ في أمرِ العامةِ-، في زمنِ الفواحشِ، والتفحُّشِ، والغناءِ، و«التكاتك»، و«التيك توك»، والمهرجاناتِ، في زمنِ الكاسياتِ العارياتِ المائلاتِ المميلاتِ؟ في كلِّ هذهِ الفتنِ كيفَ نثبُتُ؟

نثبُتُ باللهِ ﷻ، حينَ يثبّتُنا اللهُ، حينَ نستلهمُ ذلكَ من اللهِ، حينَ نقولُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ونحنُ نبكي من داخلِنا أننا نحتاجُ إلى اللهِ في كلِّ طرفةِ عينٍ، نحتاجُ إلى اللهِ في كلِّ نَفَسٍ، في كلِّ دقةِ قلبٍ، في كلِّ حركةٍ، في كلِّ سكنةٍ، في كلِّ قرارٍ، في كلِّ شعورٍ، في كلِّ علاقةٍ: أن يهدينَا، أن يوفقَنا، أن يهدينَا لما يحبُّهُ ويرضاهُ، أن يأخذَ بأيدينا وقلوبِنا إليهِ أَخْذَ الكرامِ عليهِ.

أن يجتذبَنا إليهِ ﷻ، أن يعينَنا على أنفسِنا التي بينَ جنبينا، وشياطينِنا التي تجري منا مجرى الدمِ من العروقِ، وعلى الأهواءِ، وعلى شياطينِ الإنسِ من الكفرةِ والفجرةِ والمنافقينَ؛ أن نستطيعَ أن نقاومَ ما معهم من ظلماتٍ بالنورِ الذي في قلوبِنا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. لن تصِلَ إلى ذلكَ إلا باللهِ، وإلا بإذنِ اللهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالمرتبةُ الخامسةُ: أن يثبِّتَهُ على ذلكَ، ويستمرَّ بهِ عليهِ.

«**المرتبةُ السادسةُ: أن يَصْرِفَ عنهُ الموانعَ والعوارضَ المضادةَ لذلكَ**»؛ يصرفَ عنهُ الرياءَ، والكِبْرَ، والعُجْبَ، ورؤيةَ النفسِ، والشركَ، والكفرَ، والفسوقَ، والعصيانَ، والنفاقَ، والصحبةَ السيئةَ، وأنواعَ الموانعِ والعوارضِ التي تمانعُ التوفيقَ وتعارضُ التوفيقَ؛ فإن التوفيقَ لهُ أسبابٌ من الطاعةِ، والإقبالِ على اللهِ، والانكسارِ بينَ يديهِ، والافتقارِ بينَ يديهِ.

فإذا رأيتَ من نفسِكَ أنكَ تنظرُ إلى نفسِكَ، فاعلمْ أنكَ مخذولٌ محرومٌ. فاستلهامُ التوفيقِ يكونُ بشدةِ الانكسارِ، وشدةِ الافتقارِ إلى اللهِ ﷻ، وشدةِ الإقبالِ عليهِ، أن تمرّغَ وجهَكَ على عتبةِ عبوديتِهِ ﷻ، وأن تعلمَ أنهُ ليس العجبُ ممن هلكَ كيفَ هلكَ، وإنما العجبُ ممن نجا كيفَ نجا!

قال: «**السابعةُ: أن يهديَهُ في الطريقِ نفسِها هدايةً خاصةً أخصَّ من الأولى؛ فإن الأولى هدايةٌ إلى الطريقِ إجمالًا، وهذهِ هدايةٌ فيها وفي منازِلِها تفصيلًا**». الهدايةُ إلى المنازلِ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ**

نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ المنازلُ التي بينَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ستٌّ وتسعونَ منزلةً.

فإن بينَ العملِ وبينَ القلبِ مسافةً، وبينَ القلبِ وبينَ الربِّ مسافةً؛ الإنسانُ بينهُ وبينَ العملِ مسافةٌ، والعملُ بينهُ وبينَ القلبِ مسافةٌ، والقلبُ بينهُ وبينَ الربِّ مسافةٌ، وفي تلكَ المسافاتِ لصوصٌ وقُطَّاعُ طُرُقٍ يريدونَ أن يقطعوا طريقَكَ بينَ العبدِ وبينَ العملِ، وبينَ العملِ وبينَ القلبِ، وبينَ القلبِ وبينَ الربِّ.

هذا هو السفرُ الذي تسافرُ لهُ في كلِّ طاعةٍ، في كلِّ وِرْدٍ، في كلِّ عبادةٍ؛ يريدُ الشيطانُ أن يقطعَكَ عن العملِ أصلًا فلا تفعلَهُ، ولو فعلتَهُ لا يصِلُ إلى القلبِ فيكونُ شكلًا لا حقيقةً، وإذا وصلَ إلى القلبِ يريدُ أن يقطعَهُ عن القبولِ؛ فيريدُكَ أن تُعْجَبَ بهِ، أو ترائيَ بهِ الناسَ، أو يكونَ من نصيبِ النفسِ وحظِّ النفسِ وغيرِ ذلكَ، فيقطعَهُ عن القبولِ.

فهذهِ الهدايةُ الخاصةُ -وهي هدايةٌ في منازلِ الطريقِ-: أن تفهمَ كيفَ تعبدُ وكيفَ تستعينُ، كيفَ تعبدُ وكيفَ تتوكلُ، كيفَ تعبدُ وتتوبُ، وكيفَ تنيبُ إلى اللهِ عز وجل، وكيفَ تتوكلُ عليهِ، وتستعينُ بهِ، وتعتمدُ عليهِ ﷻ، وتفتقرُ بينَ يديهِ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]؛ فذَكَرَ العبادةَ والتوكلَ، ذَكَرَ العبادةَ والاستعانةَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩]؛ فالتبتلُ والتوكلُ، العبادةُ والاستعانةُ، الإنابةُ والتوكلُ، التوبةُ والتوكلُ.

فكلما شاهدتَ ذلكَ؛ فالستُّ والتسعونَ منزلةً من اليقظةِ، والفكرةِ - التي عدَّها ابنُ القيّمِ في مدارجِ السالكينَ: اليقظةِ، والفكرةِ، والبصيرةِ،

والعزمِ، والقصدِ، والمحاسبةِ، والتوبةِ، والإنابةِ، والذكرِ، والإحسانِ، والصبرِ، والرضا- إلى التوحيدِ، آخرُ منزلةٍ في الستِّ والتسعينَ منزلةً هي التوحيدُ.

كلُّها في التفاصيلِ: في كلِّ منزلةٍ من منازلِ القلوبِ، في كلِّ منزلةٍ من منازلِ عباداتِ الجوارحِ، في كلِّ حكمٍ من الأحكامِ الشرعيةِ، آياتِ الأحكامِ، أحاديثِ الأحكامِ، مقاصدِ الشريعةِ، كلياتِ الشريعةِ، محاسنِ الشريعةِ، الحركاتِ، السكناتِ، على مستوى الفردِ، والجماعةِ، والمجتمعِ، والأُمَمِ، أن ينظرَ في جهادِهِ نفسَهُ وجهادِ أعداءِ اللهِ ﷻ الخارجينَ، في كلِّ عملٍ وطاعةٍ ظاهرٍ وباطنٍ من عبوديةِ اللسانِ، وعبوديةِ القلبِ، وعبوديةِ الجوارحِ؛ تفاصيلُ التفاصيلِ.

وهذا لا شكَّ أن العبدَ ما يجهلُهُ أضعافُ أضعافِ ما يعلمُهُ من هذهِ التفاصيلِ الشرعيةِ، وما يعلمُهُ ليس كلُّهُ يعملُ بهِ؛ أي: إن ما لا تعرفُهُ أكبرُ بكثيرٍ مما تعرفُهُ، وما تعرفُهُ كثيرٌ جدًّا منهُ لا تعملُ بهِ؛ تعرفُهُ ولكن لا تعملُ بهِ، وما تعملُ بهِ كثيرٌ جدًّا منهُ تعملُهُ ولا تثبُتُ عليهِ،

وما أنتَ ثابتٌ عليهِ كثيرٌ جدًّا منهُ تعملُهُ وثابتٌ عليهِ -فتكونُ عارفًا لهُ، وعاملًا بهِ، وثابتًا عليهِ-.

ولكن فيهِ عوارضُ للقبولِ؛ تُعْجَبُ بهِ، ترائي، إلى غيرِ ذلكَ. فالإنسانُ محتاجٌ إلى أن يتعلمَ، ويعملَ، ويثبُتَ، وينقِّيَ قلبَهُ من العوارضِ التي تعارضُ التوفيقَ والقبولَ؛ فكلُّ هذا كيفَ يأتي؟ بتعليمِ اللهِ ﷻ، وتوفيقِ اللهِ ﷻ للعملِ، وللثباتِ، وللتخلصِ من عوارضِ الطريقِ.

«**الثامنةُ**» من مراتبِ الهدايةِ: «**أن يُشْهِدَهُ المقصودَ في الطريقِ، وينبِّهَهُ عليهِ؛ فيكونَ لهُ مطالعًا في سيرِهِ، ملتفتًا إليهِ، غيرَ محتجبٍ بالوسيلةِ عنهُ**». فما المقصودُ في الطريقِ؟ رضا اللهِ ﷻ: «**أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»، ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [التوبة: ٧٢]، ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [البينة: ٨].

من هدايةِ اللهِ للعبدِ أن يوفقَهُ لأن يطالعَ هذا المقصودَ في كلِّ حركةٍ، في كلِّ سكنةٍ، في الخلوةِ، في الجلوةِ، بينَ الناسِ، وبينهُ وبينَ نفسِهِ؛ ذمَّ الناسُ، مدحَ الناسُ، الناسُ مدحوا، الناسُ ذمُّوا، الناسُ رضُوا، الناسُ سخطوا، الناسُ استغربوا، الناسُ حاربوا، الناسُ آذَوْا، الناسُ لاموا؛ لا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ، لا ينظرُ إلا لربِّهِ ﷻ.

هذا الذي يقوّيهِ ويثبّتُهُ، وهذا هو الإخلاصُ، ويترتبُ عليهِ الإخلاصُ، وقبلَ الإخلاصِ: هذا هو الصدقُ؛ جمعيةُ القلبِ على اللهِ، ثم الإخلاصُ بإرادتِهِ وجهَ اللهِ ﷻ ورضاهُ.

«**التاسعةُ: أن يُشْهِدَهُ فقرَهُ وضرورتَهُ إلى هذهِ الهدايةِ فوقَ كلِّ ضرورةٍ**». في ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦]: نحنُ توسلنا إلى اللهِ بالأسماءِ والصفاتِ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

بأصولِ الأسماءِ والصفاتِ: «الربِّ»، و«اللهِ»، و«الرحمنِ»؛ نتوسلُ إلى اللهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ لمطلوبٍ عظيمٍ جدًّا، ثم نتوسلُ إلى اللهِ ﷻ بالعبادةِ والعملِ الصالحِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فما هذا المطلوبُ العظيمُ الذي توسلنا إليهِ بالأسماءِ والصفاتِ وبالعملِ الصالحِ لكي نصِلَ إليهِ؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لماذا؟ لأنكَ محتاجٌ إليها، فقيرٌ إليها في كلِّ حركةٍ، في كلِّ سكنةٍ، في كلِّ قرارٍ، في كلِّ شعورٍ، في كلِّ فكرةٍ، في كلِّ تطبيقٍ، في كلِّ إنجازٍ، في كلِّ علاقةٍ.

في كلِّ حتى قراراتِكَ ومواجهاتِكَ وأزماتِكَ ومشكلاتِكَ على مستواكَ ومستوى أمتِكَ؛ أنتَ تحتاجُ إلى هدايةِ اللهِ عز وجل. قال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ».

أنتَ تحتاجُ إلى نورِ الهدايةِ، أنتَ تأخذُ بأسبابِ نورِ الهدايةِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

«العاشرةُ: أن يُشْهِدَهُ الطريقينِ المنحرفينِ عن طريقِها». وهذا كمالُ الشهودِ: أن تشهدَ الصراطَ المستقيمَ، وتشهدَ صراطَ المغضوبِ عليهم والضالينَ، أن تشهدَ السُّبُلَ التي تفرقُ بكم عن سبيلِهِ، أن تشهدَ اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، أن تشهدَ ذلكَ:

**عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ وَلَكِنْ لِتَوَقِّيهِ ... وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الْخَيْرِ يَقَعْ فِيهِ**

أن تشهدَ سبيلَ المجرمينَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]؛ تكونُ بيّنَةً، تكونُ واضحةً؛ لماذا؟ لتفرّقَ بينها وبينَ سبيلِ المؤمنينَ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

فيكونُ عارفًا سبيلَ المؤمنينَ وعارفًا سبيلَ المجرمينَ؛ «أن يُشْهِدَهُ الطريقينِ المنحرفينِ عن طريقِها: وهما طريقُ أهلِ الغضبِ الذينَ

عدلوا عن اتباعِ الحقِّ قصدًا وعنادًا، وطريقُ أهلِ الضلالِ الذينَ عدلوا عنهُ جهلًا وضلالًا، ثم يشهدُ جمعَ الصراطِ المستقيمِ في طريقٍ واحدٍ عليهِ جميعُ أنبياءِ اللهِ ورسلِهِ وأتباعِهم من الصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ».

فالمغضوبُ عليهم: اليهودُ، والنصارى: ضالونَ. اليهودُ عَلِمُوا ولم يعملوا، والنصارى عَمِلُوا ولم يعلموا. اليهودُ عَلِمُوا ولم يعملوا: عندهم غَيٌّ؛ عارفونَ للحقِّ ويخالفونَهُ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

والنصارى عندهم ضلالٌ: لا يعلمونَ الحقَّ، مشتبِهٌ عليهم، حتى في أصلِ عقيدتِهم في الصَّلْبِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]؛ أفهمتَ هذا الكلامَ؟ حتى في هذهِ الحادثةِ الأناجيلُ الأربعةُ مختلفةٌ ومتناقضةٌ في كثيرٍ من الأحداثِ، حتى حادثةُ الصَّلْبِ التي هي أصلُ الاعتقادِ!

النصارى ضالونَ عبرَ تاريخِهم كلِّهِ، ضالونَ متناقضونَ، عندهم تحريفٌ، عندهم تشويشٌ حتى في أصلِ الاعتقادِ فضلًا عن الأحكامِ.

النصارى عندهم عملٌ، ورهبانيةٌ، وابتداعٌ، وعزمٌ على العبادةِ، ولكن بدونِ علمٍ؛ فثَمَّةَ عملٌ بلا علمٍ، النصارى عندهم ضلالٌ، واليهودُ عندهم علمٌ بلا عملٍ، عندهم غَيٌّ.

أما المؤمنُ صاحبُ القلبِ السليمِ: فلا غَيَّ ولا ضلالَ؛ عندهُ علمٌ وعملٌ، عندهُ علمٌ وعملٌ، عندهُ هدايةٌ، عندهُ رُشْدٌ؛ والهدايةُ هي معرفةُ الحقِّ، والرشدُ معرفةُ الحقِّ والعملُ بهِ؛ ولذلكَ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

لذلكَ قالَ الربُّ ﷻ عن نبيِّهِ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]؛ فنفى عنهُ الضلالَ الذي هو قدحٌ في قوتِهِ العلميةِ، ونفى عنهُ الغَيَّ الذي هو قدحٌ في قوتِهِ العمليةِ.

فالنبيُّ ﷺ كاملٌ في قوتِهِ العلميةِ، كاملٌ في قوتِهِ العمليةِ، وكذلكَ السائرونَ وراءَهُ من الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ، والصديقينَ، والشهداءِ، والصالحينَ: علمٌ وعملٌ، لا غَيَّ ولا ضلالَ.

ثم يقفُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ وقفاتٍ أخرى في قولِهِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ولماذا جاءتْ بضميرِ الجمعِ، ولماذا جاءَ هذا الضميرُ أيضًا في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، نقفُ معهُ بإذنِ اللهِ عز وجل غدًا.

أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم. سبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ.